

## قراءات

كتاب

# رأسمالية الأزمة: العالم غير صالح للحياة

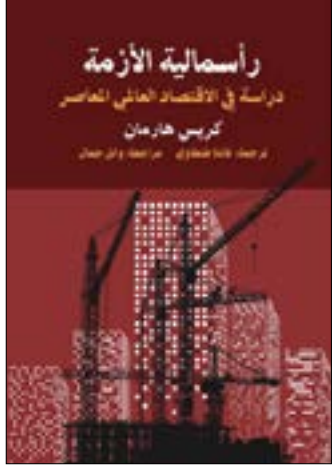
ناصر الامين

صدرت أخيراً الترجمة العربية لكتاب المنظر اليساري الإنكليزي، كريس هارمان، "Zombie Capitalism: Global Crisis and the Relevance of Marx" (ترجمة غادة طنطاوي ومراجعة وائل جمال)، إلا أن دار المراسم للإنتاج الثقافي، ناشرة الطبعة العربية، اختارت تغيير عنوان الكتاب إلى "رأسمالية الأزمة: دراسة في الاقتصاد العالمي المعاصر". إن مفهوم "الزومبي الميت الحي" لا يستحوذ من كتاب هارمان إلا صفحات عدّة، على الرغم من أنه يشكل الإطار النظري للكتاب كله. يخبرنا الكاتب في مقدمته كيف أنه بعد أزمة 2008، بدأ الكلام عن "المصارف الموتى الأحياء"، أي مؤسسات مالية في حالة "غير فائقة" ولكنها غير قادرة على القيام بأعمال إيجابية، بل تشكل خطراً على الجميع. ويذهب هارمان هنا للقول إن الرأسمالية ككل في القرن 21 هي بمثابة زومبي، من ناحية أنها تبدو ميتة حينما يتعلق الأمر بإنجاز الأهداف الإنسانية والاستجابة للمشاعر الإنسانية، ولكنها تظل قادرة على طفرات مفاجئة في النشاط تسبب الفوضى هنا وهناك. يحمل "الميت الحي" أو "الزومبي" دلالات أساسية لكيفية فهم ماركس للرأسمالية، إذ يقول في المجلد الثالث لرأس المال إنه يجب ألا يُصوّر الإنتاج الرأسمالي وكأن هدفه الأساسي إنتاج السلع للاستهلاك، ولا إنتاج أدوات التمتع للرأسماليين، هدف الرأسمالية الوحيد هو استخراج فائض القيمة، وبالتالي الاستثمار في النمو وتوسيع حدود عالمها. يرى ماركس الرأسمالية كما يرى هيغل الفكر، مستقلة بذاتها وبأهدافها، لها منطقها الخاص الذي يتطلب وجود عمال، بشرًا كانوا أم غير ذلك. حتى أن ماركس يقول في الجرنديسه، أن وسائل العمل، بعد أن يتم تبنيها في عملية الإنتاج، تمر بتحويلات عدة تنتهي في ذروتها إلى نظام آلي، هو بذورته يصبح

أوتوماتيكياً، قوى متحركة، تحرك ذاتها وأسماء الأوتوماتون، وهو مؤلف من أعضاء ميكانيكية وفكرية متعددة، حيث ينتهي دور العمال بأنهم ليسوا إلا "وصلات وعي" في الأوتوماتون.

### عالم رأس المال ينقلب علينا

يتتبع هارمان تطور مفهوم "الاعتراب" على أيدي فيورباخ وماركس، ويعده جوهراً "زومبية" مفهوم الرأسمالية لدى ماركس. فقد اعتبر فيورباخ في مؤلفه "جوهر المسيحية" أن الله هو مفهوم صنعه الإنسان لنسب إليه صفات وقدرات هي إنسانية في واقعها، جردها الإنسان ووضعها في إله بعيد، ثم ألف أديان لتحديد جميع تفاصيل حياته وحدود معرفته، وبذلك، اغترب الإنسان عن جوهره وحقيقته. أخذ ماركس مفهوم الاعتراب من فيورباخ، ولكنه اعتبر أن الأخير لم يكن مائلاً بما يكفي، ورأى أن الاعتراب لا يحصل على مستوى عملية تجريد وإبعاد للجوهر الإنساني نظرياً، بل عن طريق عملية إنتاج تجبر العامل على صرف طاقته في إنتاج سلع "غريبة" عنه، قيمتها مرتبطة بالجهد الذي بذله مباشرة، ولكنها في ذاتها، كمنتج، غريبة عنه، مستقلة. ويشير ماركس إلى أنه كلما صب العامل ذاته في العمل أكثر، كلما فقر "عالمه الداخلي"، أي كلما أصبح مجرد وعاء طاقة إنتاجية ذي وعي. ويقتبس هارمان من ماركس قوله في رأس المال إن "سيطرة رأس المال على العامل، هي سيطرة الأشياء على الإنسان، سيطرة العمل الميت على العمل الحي"، وتذهب منتجات هذه العملية نحو هدف موحد، هو مراكمة فائض القيمة، وتوسع هذا الوحش الميت الحي، أي رأس المال، عالمه، وبالتالي، استقلالته عن البشر. لكنه ليس مستقلاً تماماً، ذلك لأن طبيعة تقدمه مرتبطة بما يجنيه الرأسماليون (الذي يعتبرهم ماركس في مرحلة ما عبئاً على رأس المال) من أرباح. وبعد أن يشرح هارمان نظريات ماركس، ويناقشها في إطار النظريات النقدية تجاهها، وفي إطار



قصورها عن فكفكة بعد الظواهر التي أتت بعد ماركس. يعود هارمان إلى موضوعه الأساسي، الاتجاه الذي تذهب فيه الرأسمالية اليوم. يقتبس هارمان من ماركس أن رأس المال لا يكثر بصحة أو طول عمر العامل، إلا إذا أجبره المجتمع على ذلك، ويرد رأس المال على الاحتجاج على التحلل الجسدي والعقلي والموت المبكر وعذاب الإفراط في العمل، بالقول: هل

قصورها عن فكفكة بعد الظواهر التي أتت بعد ماركس. يعود هارمان إلى موضوعه الأساسي، الاتجاه الذي تذهب فيه الرأسمالية اليوم. يقتبس هارمان من ماركس أن رأس المال لا يكثر بصحة أو طول عمر العامل، إلا إذا أجبره المجتمع على ذلك، ويرد رأس المال على الاحتجاج على التحلل الجسدي والعقلي والموت المبكر وعذاب الإفراط في العمل، بالقول: هل

قصورها عن فكفكة بعد الظواهر التي أتت بعد ماركس. يعود هارمان إلى موضوعه الأساسي، الاتجاه الذي تذهب فيه الرأسمالية اليوم. يقتبس هارمان من ماركس أن رأس المال لا يكثر بصحة أو طول عمر العامل، إلا إذا أجبره المجتمع على ذلك، ويرد رأس المال على الاحتجاج على التحلل الجسدي والعقلي والموت المبكر وعذاب الإفراط في العمل، بالقول: هل

صراع تاريخي بينهم وبين العمال، أو لحل أزمة اقتصادية. وبطبيعة الحال، هذه هي الأسباب المباشرة لذلك، ولكن، كما يقول ماركس، إن النظر إلى الأمور على نحو كلي، يوضح أن ذلك لا يعتمد على إرادة أفراد رأسماليين جديدين أو سيئين (... بل على قوانين الإنتاج الرأسمالي، التي تواجه الفرد الرأسمالي على أنها قوانين خارجية". وعلى الرغم من ذلك لا يجري التفريق بين رأس المال في النظام الذي يمكن وصفه بالميت الحي، وبين الرأسماليين الذين يعدون جزءاً من المجتمع الذي يضغط على رأس المال في مقولة ماركس أعلاه.

في هذا الإطار، يعمل هارمان، في شرحه ومناقشته لأفكار ماركس وكيفية استخدامها اليوم، ثم في نقاشه أزمة 2008 الدائر منذ نشر الكتاب عام 2009، والذي يحاول فيه، على عكس أغلب اليساريين، الحد من أهمية القطاع المالي في أحداث الأزمة، باعتباره لا يختلف عما حصل في جوهر النظام. معتبراً أن الأزمة هي نتيجة عولمة الرأسمالية على نحو غير مسبوق. كما يؤكد أن تاريخ الرأسمالية حافل بالأزمات. ويضيف على المخاطر التي أنتجها التوسع الرأسمالي، الأزمة البيئية ويسهب في شرحها على نحو تفصيلي. وينتهي الكتاب بدعوة للثورة والتحذير من أنه في حال لم يتحقق ذلك، فإن العالم سوف يصبح غير صالح للحياة لأغلب البشرية في العقود المقبلة.

في الخلاصة، فيما باتت الأمور، التي تطرق لها هارمان في هذا الكتاب، موضع نقاش وأبحاث عديدة، ولكنه لا يزال يشكل مقدمة جيدة لنظريات ماركس وكيفية تعاطي الفكر الماركسي مع الأزمات الراهنة.

كريس هارمان، صحافي، وكاتب، وناشط سياسي إنكليزي، وعضو في اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي. كان رئيس تحرير جريدة "Socialist Worker" ومجلة "International Socialism". ألف كتاباً عدة منها "أزمة الرأسمالية الجديدة: ماذا يقول الاشتراكيون؟" و"كيف تعمل الماركسية".

هل يجب أن ننزعج من هذه الأشياء التي تزيد من أرباحنا؟

يجب أن ننزعج من هذه الأشياء التي تزيد من أرباحنا؟

الفرق بين رأس المال والرأسماليين  
يعيد هارمان خفض ساعات العمل التي حاز عليها العمال، على سبيل المثال، إلى السبب القانوني، أي التشريع من قبل الدولة، وقرار من الرأسماليين للتعامل مع ضغوط

## تواقيع

«رئيس الحكومة يستعرض عضلاته، وتحدث عن برنامجها للصناديق الاجتماعية والمؤسسات العمومية. نقدر حماسة الشباب، لكن أنت اخترت المعركة ونحنت لها... لا شيء للبيع في تونس. المؤسسات العمومية خط أحمر (... سنعمل للتصدي لهذا المشروع الخطير جداً).

نور الدين الطوبوي، الأمين العام للاتحاد العام التونسي للشغل، في تجمع شعبي، معلناً تنظيم تجمعات عمالية كبرى ستبلغ ذروتها بتجمع كبير في تونس العاصمة مدينة سوسة - 24 آذار 2018

«قبل أن نصل إلى هذه المرحلة، ينبغي أن نتوقف قليلاً لفهم الخطر الذي يصاحب هذه الإمكانيات الواعدة»

كريستين لاغارد، المدير العام لصندوق النقد الدولي واشنطن - 13 مارس 2018

«تعاضد المال العمومية له حل واحد وهو الإصلاحات الهيكلية والإدارية، وهي يجب أن تشمل الصناديق الاجتماعية ومنظومة الدعم والمؤسسات العمومية، التي تشهد عجزاً (... لأن وضع المال العمومية لم يعد يتحمل تغطية عجز هذه المؤسسات.»

يوسف الشاهد، رئيس الحكومة التونسية، في كلمة أمام البرلمان، معلناً برنامج خصخصة مؤسسات وصناديق عمومية، يقدر عجزها السنوي بنحو 2,6 مليار دولار تونس - 23 آذار 2018

«مصرف لبنان يستعد لإطلاق العملة الرقمية التي ستؤدي إلى تطوير مهم في مجال الاقتصاد الرقمي»

رياض سلامة، حاكم مصرف لبنان بيروت - 21 شباط 2018

إنشاء هيئة استشارية من أصحاب الاختصاص والتجارب الناجحة لصياغة استراتيجية خلق فرص عمل محلية، ما يعني رجال أعمال وتكنولوجيا. وتزيد المقترحات أدلة نيوليبرالية حين يقترح المرشح ماركس من "حداً مناً" إنشاء "منطقة حرة صيدا، تساعد في تطوير ونمو الشوف وعاليه وجزين وصيدا"، على غرار المنطقة التي يتم إنشاؤها في طرابلس. هذا النموذج الذي انتشر في البلدان النامية من أجل إيجاد مناطق رخيصة للتصنيع والتشغيل غير اللائق. ما لم يقله صو، إن هذه المنطقة "الحرّة" هي في الحقيقة محررة من القوانين التي تحمي العمال - ناخبية المفترضين بالمدى - ومن الضرائب والحد الأدنى للأجور.

### السياسة المالية

تتعهد حملة "حداً مناً" بزيادة الإنفاق المحدي ووقف الهدر من دون توضيح لمقومات هذا الإنفاق المحدي وآلياته في استعادة ببغائية لمصطلحات صندوق النقد والبنك الدوليين. فزيادة الإنفاق المحدي تعني أيضاً تقليصاً في أماكن أخرى، وهو ما يطرحه تيار المستقبل في برنامج الانتخابي. وهذا ما تدعو إليه حملة "كلنا بيروت" من دون موازنة مع إضافة مصطلحات الشفافية والمحاسبة والتكنولوجيا بوصفها من عدة شغل المؤسسات المالية الدولية. أما بما يخص السياسات الضريبية تتعهد حملة "حداً مناً" بمراجعة كافة السياسات الضريبية التي أقرت والتي سيتم إقرارها، بما يحقق مصالح المواطنين، مع توظيف الضرائب المقطعة لتحسين حياة اللبنانيين. ولكن لم تذكر مراجعة أي اتجاه، وحياء أي لبنانيين، وأي قطاعات وأي أرباح وأجور. ما قد يبرر تخفيف الضرائب على الفوائد المصرفية وزيادتها في أن. أما "كلنا بيروت" فتضع تحت حانة العدالة الضريبية تخفيض نسب الضرائب غير المباشرة ومكافحة التهريب الضريبي دون التطرق إلى الضرائب على الثروات وعلى الأرباح الريعية وغيرها من القوانين التي تحول لبنان إلى شبه جنة ضريبية للبعض.

### أي بديل يطرحون؟

تعجز هذه المجموعات "البديلة" عن طرح بدائل جدية، بل تغرق في الأيديولوجية الاقتصادية السائدة في لبنان والعالم، وتكاد تطرح السياسات نفسها التي تدفع من أجلها الطبقة الحاكمة بأذرعها المصرفية والعقارية كافة. فالواضح من خلفية المرشحين والمرشحات الأكاديمية والمهنية وموقعهم كتنكوقراط أنهم لا يهدفون علاقات القوة المهيمنة، بل جل ما يعدون به هو تطبيق السياسات التي تجعل النظام الحالي يعمل بطريقة أكفأ في خدمة المصالح الكامنة فيه. هذا ما يظهر جلياً في أحد الأشرطة الدعائية للمرشح جيلبير صومط، الذي يقول بالإنكليزية: "أقوم باستشارات لحكومات في البلدان العربية وأصيح سياسات لها، أريد فعل هذا الأمر هنا، ويرد بالعبارة "نحننا منعلمهم شغلهم للسياسيين وهي ولا مرة بيطلبوا".